# الدين والفلسفة

## معناهما ونشأتهما وعوامل التفرقة بينهما

لمحمد يوسف موسى

الانسان مطبوع بطبعه ، يودّ دائماً أن يعرف نفسه وما يحيط به ، وأن يتعرف على ما يراه من حوادث وظواهر . وبعبارة أخرى يود لو استشف الغيب ، فعرف العالم والقوة التي أوجدته ، والنظام الذي يسير عليه ، والاصل الذي كان منهُ والغاية التي ينتهي اليها ! . ولقد لجأ أول الأمر — بعد أن تقطعت السبل بينهُ وبين النبوات الاولى — الى فروض مختلفة كانت المعين للاساطير الدينية والفلسفية ، ثم وجد بعد هذا في الفلسفات الصحيحة والاديان الحقة ما أرضى نهمه الفكري ووطد ايمانه ، وما أناله حلول أكثر المسائل والمشاكل التي أثارها ما فطر عليه من طلعة

ولعلّ التفكير الديني كان أول لون من ألوان التفكير الانساني ، لأن الايمان بقوى طبيعية أو فوق الطبيعية يكاد يكون مركزاً في فطرة الانسان ، فيضيف اليها التصرف في الكون واحداث ما يشاهد من ظواهره ، ويعبدها تمثلة فيما يرى من جماد أو حيوان أو اجرام سماوية ، ويضع لعبادتها ما يهديه اليه فكره من طقوس وتشاريع . ثم كان أن تطور الانسان وتقدم التفكير ، فتناول ما كوّنه المرء في الطور الاول من عقيدة وتشريع فشرع يفلسفه ، ثم تقدم خطوة أخرى فتجاوز الانسان بالنظر الفلسفي حدود العقيدة الى الكون كله ومصدره ونشأته وما يتناوبه من كون وفساد ، غير متقيد في تفكيره بما ورث من دين وتقاليد ، فكان من هذا ما نعرفه بالفلسفة الحقيقة بهذا الاسم . ثم وجد الانسان بعد ذلك كثيراً مما يتطلع الى معرفته فيما جاء به الرسل من ديانات صحيحة عن الله بعد أن بلغوا الذي أرسلوا به فذاع بين الناس

وكان حريّاً بالتفكير الفلسفي ، وقد نشأ أول ما نشأ في حدود العقيدة والدين ، أن يظل متعاوناً مع الدين فيما يروم المرء ويعمل جاهداً له : من فهم العالم وحقائق الموجودات ، ومن الوصول بالانسان الى السعادة التي يرجوها من وراء العلم الحق — الذي تكون له النفس — بالعالم أرضه وسمائه . كان هذا حريّاً بالفلسفة ، ولكن لعوامل مختلفة سجّل تاريخ التفكير ما كان

من وفاق أحياناً وخصومة احياناً بين الدين والفلسفة كما سجّل آثار ذلك في التفكير الانساني العام. غير انهُ قبل الكلام في هذا نرى من الخير أن نحدد ما نريد بكلمة « دين » ، وكلمة « فلسفة » ، ليكون الكلام محدّداً والطريق مأموناً

١ — للدين معان متعددة ، بعضها يرجع الى اللغة ، وبعضها يرجع الى الشرع . ففي لسان العرب أن الدين هو الجزاء والطاعة والعادة والاسلام ، ويقول الاصفهاني : « والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة والدين كالملة [1] » والفرق بينهما في رأيه أن الدين يضاف الى الله والى النبي ، بينما الملة لا تضاف الاّ للنبي الذي تسند اليهِ ولا تكاد توجد مضافة الى الله ، فلا يقال ملة الله كما يقال دينَ الله ويقال ملة ابراهيم مثلاً كما جاءَ في القرآن [2] ويرى الشهرستاني [3] ان الدين الطاعة والانقياد ، وأنهُ قد يرد بمعنى الجزاء والحساب ، وان الملة والشريعة يتفرعان عن اجتماع الناس وحاجتهم في سبيل خيرهم للتعاون والتعاون . والجُرجاني يرى أن الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فالشريعة من حيث أنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث انها تجمع تسمى ملة ، وقيل بينهما فرق وهو ان الدين منسوب الى الله والملة منسوبة الى الرسول [4] وبعد هؤلاء جميعاً نجد التهانوي يقول ان الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم اياه الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل ، ويطلق على ملة كل نبي ، وقد يخص بالاسلام ، ويضاف الى الله لصدوره منه والى النبي لظهوره على يديه والى الأمة لتدينهم بهِ وانقيادهم له

***

هذا ، والدين ، اذا لوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يطلق على الدين الحق والدين الباطل أيضاً ما عدا ما لا يقدر بالبعث والجزاء ، والقرآن يقر هذا حين سمى ما كان عليه العرب ديناً اذ يقول « لكم دينكم ولي دين » . لكن الدين صار له معنى شرعي خاص لما اشترط فيه أن يكون وحياً من الله لهداية الناس بما يجيء به من عقائد وأصول عامة لا يتطرق اليها النسخ ولا يختلف فيها الانبياء ، ويدل لذلك قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، فان المعنى كما ذكر المفسرون : أوصيناك يا محمد وسائر الأنبياء ديناً واحداً

ذلك هو معنى الدين في اللغة والشرع ، منهُ نتبين أن الدين يقوم على الايمان بقوة عُليا تجب طاعتها وتجازي المرء على ما يعمل ، ويعدّ الانسان بحاول لكثير من المشاكل التي سبق

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٧٥ (٢) المصدر نفسه ص ٤٨٨ (٣) الملل والنحل ١ : ٤٦
(٤) كتاب التعريفات

أن وقف أمامها فكره وفرض فيها الفروض . فلنأخذ الآن في بيان معنى كلمة فلسفة ، لنرى ما قد يكون من صلة بين الدين وبينها في نشأتها وغايتها

٢ — والفلسفة كذلك اختلفت الآراء في تحديدها وبيان موضوعها ، فكان لنا من هذا تعاريف متعددة لها ، ويكفينا أن نذكر من بين هذه التعاريف ما ذهب اليه أساطين الفلسفة الاغريقية وبعض الفلاسفة والمفكرين في الاسلام

ا — يرى سقراط أن الفلسفة هي حب الحكمة والسعي وراءها ، وهي في رأيه تكاد تنحصر في معرفة الانسان نفسه

ب — ويرى تلميذه الاشهر أفلاطون انها — بمعناها الاخص — معرفة عالم المثل ، أي الاشياء الثابتة وجواهرها الدائمة

ج — ويرى أرسطو أن الفلسفة — بمعناها الاخص أيضاً — علم ما وراء الطبيعة ، أي تعرّف العلة الاولى للاشياء او تعرّف المبدأ الاول

د — والخوارزمي يرى انها علم حقائق الاشياء ، في الطبيعة أو فيما بعد الطبيعة أو الرياضيات ، والعمل بما هو أصلح [1]

ه — ويذهب ابن سينا الى ان الحكمة استكمال النفس الانسانية بتصوّر الامور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الانسانية [2] وعلى هذا قال الفارابي وابن رشد

و — ويرى الشهرستاني ان الحكمة تطلب ليعمل بها أو لتُعلم فقط ، فهي لهذا علمية وعملية ؛ فالقسم العملي هو العلم الخير ، والقسم العلمي ، علم الحق. [3]

ز — وأخيراً يذكر طاش كبرى زاده ان الفلسفة نظرية وعملية . والاولى تشمل العلم الالهي أو علم ما بعد الطبيعة والعلم الرياضي والعلم الطبيعي ، وأن العلم الالهي — وهو العلم الاعلى أو الفلسفة الاولى — هو البحث عن حقائق الموجودات من حيث هي موجودات [4]

ومن هذه التعاريف جميعها نستطيع أن نقرر ان الفلسفة هي التفكير الحرّ في الاله والكون والانسان . أو نظر العقل الحر الذي يراد به معرفة حقائق الموجودات والمعلولات وعللها ، في العالم الاكبر المحيط بالانسان ، والاصغر الذي هو الانسان ، وفي المبدأ الاول لهذا كله . أو هي التفكير الحر لكشف المجهول وإسعاد الانسان

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٣١ (٢) تسع رسائل ص ٢
(٣) الملل والنحل ٢ : ١٥٦ — ١٥٧ (٤) مفتاح السعادة ١ : ٣٥٥

والفلسفة — كما أشرنا من قبل — نشأت في حدود العقيدة والدين ومن غايتها إسعاد الانسان ، ومن ثمَّ التبس الأمر على بعض المفكرين فجعل الغرض منها هو غرض الدين . هذا ابن حزم يصرح بأن الغرض من الفلسفة هو اصلاح النفس ، وان هذا نفسه هو الغرض من الشريعة ، وأنه لا خلاف في هذا بين أحد من رجال الفلسفة وأحد من رجال الشريعة (١) وهذا ما لا يستطيع الباحث تسليمه له ، اللهمَّ إلا ان قصرنا الفلسفة على القسم العملي منها ، أو قلنا ان الغاية من القسم النظري تسكين النفس الطلعة القلقة وإذهاب حيرتها بالمعرفة والعلم ، فيكون ذلك عوناً لها على السعادة !

***

ومهما يكن من الفرق بين الدين والفلسفة ، فان ابن سينا يربط بينهما برباط دقيق متين يجعل — في رأيي — فضلاً واضحاً للدين على الفلسفة (٢) ، إذ يرى أن مبدأ الفلسفة العملية مستفاد من جهة الشريعة الالهية ، وأن مبادىء الفلسفة النظرية مستفادة من أرباب الملة الالهية ثم تعمل القوة العقلية على تحصيلها بالكمال ، وأن من أوتي استكمال نفسه بهاتين الحكمتين فقد أوتي خيراً كثيراً (٣)

ومعنى هذا ان المرء لا غنى له في سبيل سعادته عن الدين والفلسفة معاً ، وإن كان للأول فضل على الأخرى

لكن هذه النتيجة التي تلزم الشيخ الرئيس لا ترضي طبعاً الكثير من رجال الدين . ونعتقد أن طاش كبرى زاده كان يرمي من قومهم إذ يقرر أن الدين جاء بالعدل حقيقة ، وأما الذي استحسنه عقول الحكماء — يعني الحكمة العملية التي القصد منها إصلاح النفس والمنزل والأمة — فهو السياسة الاصلاحية التي يبقى بها نظام العالم وإن لم تصلح بها أمور الآخرة ، وأن الذين يقولون لا بدَّ للشرع من انضمام السياسة جهلة وعوام لأن الشرع لا يحتاج الى غيره ! وكيف يحتاج الشرع الى السياسة والانبياء تكفل بهم أمور الدارين وما يصلح به البشر علمياً وعملياً (٤) وهذا الرأي ، أعني حاجة الدين أو عدم حاجته للفلسفة ، من المزالق الخطيرة ، ومع ذلك فنقول فيه كلاماً يأتي في محله من هذا البحث بفضل الله وتوفيقه

والآن ، وقد وضح معنى الدين والفلسفة ونشأتهما وموضوع كل منهما والعلة الطبيعية بينهما ، ننتقل الى الحديث عن أهم العوامل التي فرقت بينهما أو بين رجالهما ، وجعلت

---

(١) الفصل ١ ص ٩٤ . (٢) لعله أراد بهذا التوفيق بين الوحي والعقل على ما سيجيء بيانه
(٣) تسع رسائل ص ٢ — ٣ (٤) مفتاح السعادة ص ٣٣٦

منهما معسكرين لكل منهما أشياع يتربص بعضهم ببعض الدوائر ، بينما كان من الواجب أن يسير كل منهما مع الآخر جنباً الى جنب ، ما دامَا هما معاً المعينين اللذين يرجع اليهما الانسان في كشف المجهول ، وما دام من غرضهما جعل الانسان خيراً فاضلاً سعيداً !

هذه العوامل منها ما يرجع الى السياسة ، ومنها ما يرجع الى التنازع على عروض هذه الحياة ، ومنها ما يرجع الى طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة . وسنتبين من سياق الحديث فيما يأتي ما يتصل بالفريقين : الأول والثاني ، فلنجعل الكلام الآن في الضرب الأخير وحده ، معتمدين على التحليل والتأمل الذاتي

***

تكاد الغاية من الدين تتمحض في هداية الناس للخير والسعادة ، لا في تفهيم حقائق الموجودات وما يعتري العالم من كون وفساد ونحو هذا مما هو غاية الفلسفة النظرية . فاذا جاء الفلاسفة وحاولوا الكشف عن ذلك عدّهم بعض رجال الدين جماعة تحاول الوصول الى ما استأثر الله بعلمه ، ورأوا فيما يحاولون ما لا يتفق وإجلال الله الذي يعلم وحده كل شيء

ثم نجد الدين يوحي الى المتدين أنهُ ليس بشيء في جانب الله وأنهُ عاجز كل العجز عن فهم نفسه ، بله العالم والسموات وما فيهنّ وما بينهنّ ! فاذا أتى الفيلسوف يعلن مقدرة العقل على تعرّف هذا كله رماه رجل الدين بالحمق والغرور والتطاول الى ما ليس في طوقه ! ويوردون في هذا قوله تعالى : «ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الاّ قليلاً»

وأخيراً ، رأى رجال الدين تخبّط المتفلسفين كثيراً وترديهم في الخطأ والضلال ، فكيف اذاً يؤمنون لهم فيما يذهبون اليه مما لو كان في معرفته خيراً للانسان لبيّنه الله ورسله ، أو لم يَحُلْ بيننا وبين البحث فيه ! وكان من الخير — لهذا — في رأيهم مجافاة الفلسفة سدّاً لطريق الخطأ فيه في رأيهم أكثر من الاصابة !

ولعلّ سقراط نظر الى هذا كله أو بعضه حين رأى لنفسه ان يكون فيلسوفاً يعنى بالمسائل الانسانية لا بعلم الطبيعة ، وحين اعتبر علم الطبيعة علماً باطلاً مجدباً وفيه اهانة للآلهة

ان البحث في علم الطبيعة — فيما يرى — بحث باطل وعبث ، لأن الطبيعيين لم يتفقوا على مسألة من مسائله ، والاختلاف والتناقض أمارة الجهل . وهو محدب لا خير يُرجى منه ، لأن هؤلاء المعنيّين به هل يعتقدون أنهم إن عرفوا ما عليه العالم من قانون — به

تحدث ظواهره — يستطيعون أن يحدثوا الرياح والمياه والفصول ! والبحث في هذا العلم فيه اهانة للآلهة ، لأن الآلهة منحتنا القدرة على معرفة الاشياء الانسانية بالتفكير ، واستأثرت بمعرفة الاشياء الالهية مثل تكوّن العالم وما يتصل بهذا من المسائل الطبيعية ، وعلماء الطبيعة — حينما بحثوا في هذا الضرب من المسائل وأهملوا الضرب الاول — قد قلبوا النظام الالهي باحتقارهم ما مُنحوا بالقدرة على معرفته وتطلعهم الى معرفة ما احتفظ به الالهة لانفسهم ! (١)

وأخيراً ، لقد ثبت من تاريخ التفكير الفلسفي ان الفلسفة حاولت ان تجعل من نفسها ديناً يغني الانسان عن الأديان المختلفة ، كما نعلم من الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحديثة . وكذلك نعلم ان بعض الفلاسفة « كأفلاطون » عنوا بنقد الدين الذي كان سائداً في أيامهم ؛ وأن آخرين كاخوان الصفاء كانوا يرون ان الدين الاسلامي ليس كاملاً بنفسه ، وانما الكمال يكون متى انتظم الدين والفلسفة معاً وأفاد كل منهما من الآخر

وكفى بهذا وذاك في أن يضمر رجال الدين للفلسفة ورجالها العداء .

***

هذه هي العوامل ، الراجعة الى طبيعة الدين والفلسفة ، التي قد تدفع الى الخصومة بينهما ! طبيعة الدين الذي مصدره القلب الذي ينفتح للعقيدة بالهام قوة عليا وإن لم يقم على ما يعتقد دليل في رأيه ، وطبيعة الفلسفة التي أداتها العقل الذي يستقرىء ويحلل ويتأول ثم يعتقد غير متقيد بادىء الامر بعقيدة أو رأي لم يقم عليه دليل . وباضافة العوامل الاخرى ، التي سبق أن أشرنا الى مصدرها والتي سيجيء لها ذكر في عاطها ، كانت الخصومة التي سجلها التاريخ . هذه الخصومة كانت تشتد وتخف ، وتستعلن وتستتر تبعاً لتعصب رجال الحكم أو تسامحهم ، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم ، ولغير هذا وذاك من العوامل التي كان لها أثرها في تلك الأيام

وفي بيان هذا النضال بين الدين والفلسفة ، أي بين هاتين القوتين اللتين تحددان للأمم أهدافها وغاياتها ، يتسع القول لو وجدنا مجالاً ، ولذلك نكتفي في عرضه — لدى المسلمين — وفي بيان آثاره باشارات أو لمحات فيها غناء لمن ألمّ بطرف من تاريخنا الفكري ، وسنتكلم أولاً عما كان من ذلك في المشرق ، ثم عما كان منه في المغرب ثانياً « يتبع »

(١) دراسات في تاريخ الفلسفة الاملح د . اميل بوترو E. Boutroux . بالفرنسية ص ٢٢ — ٢٣